البدو والهجر (١)

تحضير البدو في الجزيرة اصلاح اجتماعي خطير

قد شاهدنا للمرة الاولى ، في رقعة تربة ، روحاً جديدة في القتال روحاً تجدية دينية مجسمة في الاخوان ، روحاً قهّارة ، هي بنت الهول والاستشهاد ، قلما تُغلَب او ترد . وفي كلة كتبها الامير عبدالله الى ابن سعود سر هذه القوة . قال الامير : « فاردد الدين امرتهم ببيع مواشيهم و بنيتُ لهم الدور » . هي اول اشارة في هذا التاريخ الى الهجر . والهجر مهد الاخوان ، والاخوان جيش ابن سعود الديني القومي ، جيش التوحيد

وما هي الهجر ، وكيف أسست ، وما الذي دعا لتأسيسها ؟ ومن هم البدو ومن هم الاخوان ؟ سنبدأ مجيبين عن هذه الاسئلة بكلة على البدو ، فنتطرق الى الهجر واهلها

البدو منذ القدم غزاة ، عصاة ، عتاة ، ولهم غريزة دينية غذتها الخرافات ، ومطامع تكاد تنحصر بالاقوات . فهم يسارعون الى القتال في سبيل الله كلما نفر النافر وضاق بهم العيش . ولكنهم في طاعتهم واخلاصهم ، وفي جهادهم وولائهم ، لا يحتسبون فوق طاقتهم ، وقلما ينادون بشيء من اشياتهم ، يحاربون و يثيرون . وهم وان غالوا في دينهم ، لا يبتدعون ، بل انهم الى الردة سريعون

وقد رأى الرؤساء منذ القدم ، نظراً لغريزتهم الدينية وان تلوثت ، ان يستلوا عليهم سيف الالوهية قبل السيف الذي يُرى . دعاهم مسيلمة فلبوه ، ثم دعاهم الشيخ طاهر القرمطي فحاربوا معه كالبنيان المرصوص . ثم تشتتوا بعد كسرة القرامطة ، فجاءتهم من البصرة والخط عقائد في الدين جددت في جمع شملهم وتعزيز املهم ، فبنوا القباب فوق القبور ، وعلقوا الرقاع على الاشجار — سبحان من هو صديق للواحد القهار

ثم جاء ابن عبد الوهاب يعلمهم ان التسبيح لا يجوز لغير الله الواحد القهار . جاء يعلمهم التوحيد واستعان على ذلك بسيف ابن سعود ، فقاتلوا يحاربونه مع ابن الدوّاس ، وابن العُريعر ، وكانوا مدحورين . جمعهم ابن سعود تحت علم التوحيد ، فوحدوا الله واقسموا

(١) فصل بديع بعث به الينا الكاتب المشهور امين افندي الريحاني من كتابه المعد للطبع في « تاريخ نجد الحديث وملحقاته » . وقد عالج في هذا الفصل موضوعاً كبير الشأن في تاريخ الجزيرة الحديث لم يسبقه اليه أحد من المستشرقين

ان لا شريك لهُ . ولكنهم في كل اطوارهم بدو ، والبدو مثل ذوي الاجنحة طيارون . او ان لهم مزية الوثبق ، فيجتمعون و يفترقون ، وانت لتلم الفاجعة . لا يحملون شيئاً في جيوبهم ، ولا في قلوبهم ، بل لا جيوب لهم ولا قلوب . وفاتك في الطريق اليوم ، واعداؤك غداً

ولكن النبي نفسه انبهم ولم ينفعهم التأنيب . فقد جاء في القرآن « قالت الاعراب امنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا »

اما الذين عندهم فكالرداء يلبسونهُ ردحاً من الزمن ، فينسلونهُ مرة او مرتين ثم يلبسونهُ مقلوباً ، ثم ينبذونهُ وقد تمزق نبذ النواة — كيف نتوضأ ونحن نبغي الماء للشرب ؟ ولم الصوم والسنة كلها عندنا رمضان ؟ ولم الصلاة وليس لله وقت ليسمعنا ؟

وكذلك كانوا في ولائهم لهذا الامير او ذاك . فما الفرق ورلك بين ابن مقرن مثلاً وابن هاشم ، او بين ابن الصباح وابن الرشيد ؟ هم كلهم عرب ، يقيمون في بلاد العرب ، و يغزون غزو العرب ، ونحن ان حار بنا مع هذا او ذاك عرب

ما تغيّر البدو منذ ايام الرسول ، ومنذ ايام مسيلمة وابي طاهر القرمطي . دينهم حاجات ، لذلك الردات . وولاؤهم غايات ، لذلك الخيانات. وقد تبين لقارئ هذا التاريخ في ما سردناهُ من حوادثهم ، وسجلناهُ من حروبهم ، انهم لم يتغيروا حتى بداية القرن العشرين . فقد طالما ارتدوا وعادوا تائبين ، منذ ايام عبد العزيز الاول الى ايام عبد العزيز الثاني . وهم كما وصفناهم لا يوالون طويلاً ، ولا يعادون طويلاً . لا يثبتون ، ولا يسكنون ، ولا يستقيمون في مسراهم او في مقزاهم

البدو سيف في يد الامير اليوم ، وخنجرٌ في ظهرهِ غداً . يجاهدون اذا قيل غنائم ، متارضون اذا قيل الجهاد . وكذلك كانوا عند ظهور عبد العزيز الثاني وفي حروبهِ الاولى وغزواتهِ . كانوا يحاربون ما زالوا آمنين على اموالهم وانفسهم ، و يغيرون شاردين عند اول خطر يلوح . لذلك كان ابن سعود يقدمهم في القتال و يدعمهم بالحضر ، يحمي ظهورهم ليؤمن انقلابهم وتقهقرهم . فهم اذ ذاك اشداء ثابتون في النضال . و بكلمة اخرى هم شجعان اذا كان لهم ظهر . والا فالفائتة لنا والفرار علينا . جاء في امثال العرب : البدوي اذا رأى الخير تدلى واذا رأى الشر تعلى . ولكن البدوي وحدهُ يدافع عن نفسهِ و بعيرهِ حتى الموت وان كان خصمهُ قبيلة بأسرها . اما البدوي في الجيش فقد كان شكل ابن سعود الاكبر

وقد حل عبد العزيز هذا المشكل بطريقة جديدة لم يسبقهُ اليها احد من ملوك العرب

قديماً او حديثاً . فهو من هذا القبيل المصلح الاكبر في العرب

اجل قد حارب البدو وغلبهم كما فعل اجداده ، وادخلهم في دين التوحيد كما فعل اجداده ، ولكنه لم يقف مثلهم عند هذا الحد. قال اسكوا الخوة ، فقالوا : الفلا منجى وها هنا نجوة التجلي . فقد تجلت لعبد العزيز الحقيقة التي خفيت على سواه . وهذه الحقيقة هي ان البدو لا يثبتون، ولا يطيعون ، ولا يخلصون — لانهم لا يملكون شيئاً من الارض ولا يكتون بيوتاً ثابتة . اذن، سنعطيهم ارضاً ونساعدهم في بناء البيوت. سننقلهم من البادية الى المدينة. سنقيدهم بالارض ، ونكبلهم بسلاسل التملك فننفعهم، واذا اذنبوا استطعنا تأديبهم

ان هناك كذلك الفكرة الدينية ، الفكرة الاولى في الهجَر — والهُجَر جمع هجرة — والهجرة في القاموس ترك الوطن الذي بين الكفار والانتقال الى دار الاسلام . اما وطن البدو فالبادية ، والبادية مهد الشرك ، فالهجرة منها اذن هي الهجرة الى الله والتوحيد . وهي كذلك هجرة مدنية . فمن بيوت الشعر الى بيوت من لبن وحجر ، ومن الغزو والغزو الى ارض لأ تخون صاحبها اذا اعمل بها المحراث ، ومن الخوف والتحذر الى طمأنينة لا تهجره ما زال عاملاً مفيداً لنفسه ولبلاده

الداعي الى الهجرة اذن ثلاثة امور ، اي تعليم البدو الدين، وتفعهم بارض يحرثونها، والاستيلاء عليهم . ليس من السهل ان يألف البدوي الزراعة وقد كان دائماً يأنفها . كان سكان البادية يقسمون في الماضي الى قسمين البدو والعرب . فالبدو غزاة ، والعربُ رعاة ، ولا اكار بينهم ، ولا من يتنازل للعمل في الارض

***

باشر ابن سعود اصلاحهُ الكبير بالواسطة الدينية ، فكان يرسل المطاوعة الى البادية ليعلموا اهلها دين التوحيد والفرائض ، ويزينوا لهم هجر ما هم فيه الى ايمان يستشعرون ، وبيت يأوون ، وارض يحرثون . وقد استخدم في التحضير القوة المدنية ايضاً ، فكان السيف يقدم المطوّع في بعض الاحايين او يتبعهُ كما تقتضي الاحوال . تجاوز التطور في البدو حدود الديني ، فصاروا يهجرون ما هم فيه ليس الى الله والتوحيد فقط ، بل الى الشريعة والنظام ، وطاعة الحكام ، واحترام حياة الانام

وكان ابن سعود يعين بقعة من الارض فيها ماء لقبيلة او لفخذ منها فتنزح اليها وتباشر بناية البيوت فيها . بيد ان الصعوبة الاولى التي تغلب دعاة الهجرة عليها هي الجمال . ومعلوم ان رزق البدوي باهرهُ ، فما زالت عندهُ ما زالت البادية تستغويه ، فيروح في

ساعات الفجر طالبًا الرزق حلالاً او غزوًا حيث كان . لذلك أجبر البدو على بيع جمالهم

كان ابن سعود يساعد ماليًا في بناء البيوت الجديدة . وقد أسست في سنة ١٣٣٠ اول هجرة لعرب مطير اي الارطاوية شرقي بريدة وقرب الدهناء. اما تسميتها بالارطاوية فهو لان الأرطى، مرعى الابل المعروف ، يكثر في جوارها. ان هذه الهجرة لاكبر الهجر اليوم واهمها . وقد تبعها كل سنة هجرٌ عدة لقبائل حرب وعتيبة وقحطان وغيرها ، حتى اصبح عددها سبعين هجرة ويزيد[1]

على ان هذه الهجر في بداية امرها أورثت ابن سعود مشكلاً آخر ، وهو ان البدو بعد ان باعوا جمالهم وصاروا «اخوان» يتعصبون بالعصابة البيضاء التي تميزهم عن الناس، اقاموا في الهجر لا يعملون شيئًا في ايام السلم غير الصلاة . غدت بيوتهم مناسك . وقد نزلوها ابتغاء وجه الله. هجروا البادية حقيقةً الى الله والتوحيد فاصبحوا عالةً على صاحب البلاد

ولكن المصلح الكبير لا يعدم طريقة تنقذ اصلاحه من الخطر. فشحذ ذهنه واستعان على تلك الحالة بالعلماء ، فجاء العلماء بالتاريخ ، و باخبار السلف ، فحلوا بها المطاوعة ، فراح هؤلاء يحاربون بها البطالة والكسل . راحوا يعلمون المتحضرين ان الزراعة والتجارة والصناعة لا تنافي الدين ، وان المؤمن الغني خير من المؤمن الفقير — وهذا ابو بكر ، كرم الله وجهه ، كان يملك ثمانية آلاف رأس من الابل والخيل . فهل تزدرون ، ايها الاخوان ، ما كان يرغب فيه ابو بكر ؟ وهل تشكون في ان الله سبحانه وتعالى يفتح لكم ، اذا انتم زرعتم وتاجرتم ، ابواب الثروة والجاه ؟

قد افلح المطاوعة في تحبيب العمل والمال الى الاخوان ، فشرعوا يزرعون الارض حول الهجر ويتاجرون . وقد نشأت بعض هذه القرى نشوءًا سريعًا فصارت تبارى جاراتها القديمة بالزراعة والتجارة . على ان الزراعة والتجارة لم تضعف في ابناء هذه الهجر ، من الاخوان ، روحَ القتال . بل علمتهم فرق شجاعتهم شجاعة جديدة لا تعرف الخوف ، ولا تهاب الموت . وما الشجاعة هذه غير بنت الايمان الجديد الحي القوي . فان اخوان مطير في الارطاوية مثلاً ، واخوان حرب في دُخنة ، واخوان عتيبة في القَطَن ، لاشد جيوش ابن سعود بأسًا ، وابسلهم نضالاً ، واسبقهم الى الاستشهاد. كيف لا وقد قدّموا في تحضيرهم سيفين ، سيف الدين، وسيف الثبات. انهم اليوم لغيرهم بالامس فلا يشردون،

(١) في الملحق لهذا التاريخ — في آخره — لائحة الهجر كلها واسماؤها واسماء عشائرها وعدد سكانها وعدد القتالة فيها

ولا يتراجعون ، وقلما ينهزمون . انهم يحاربون حبًّا بالاستشهاد والجنة ، وحبًّا بالمحافظة على ما يملكون . صاروا يخافون النار ، ويخشون عاقبة الفرار

لا . لم تقتل الهجر في اهلها غريزة الغزو ، ولا اضعفتها . بل شحذتها في سبيل الله ، وقيدتها بشروط تختص بتقسيم الغنائم . على ان توحيد السيادة العربية ، السائرة البلاد نحوها ، تضيق من طبعها مجال الغزو وتزيله في النهاية تماماً . فلا تجد اذ ذاك العرب اعداء من العرب او عرباً مشركين للغزو والجهاد

قلت مرة لعظمة السلطان : « وستكون الهجرة الثانية من الجهل الى العلم ان شاء الله فتؤسس المدارس و يتعلم الاخوان شيئاً من العلوم التي من شأنها ان تحسن الصناعة والتجارة والزراعة في البلاد » فاجاب عظمته : « كل شيء يجيء في وقته »

اما سكان الهجر الآن ، وهم الطبقة الاكثر عدداً ، فقد الفوا الزراعة واستعذبوا ثمارها . وهناك الطبقتان الاخريان اي التجار والمطاوعة . أما من الوجهة الحربية فالهجرة تقسم الى ثلاثة اقسام أخر لتلبية دعوات الحرب الثلاث ، اي الجهاد ، والجهاد مثنى ، والنفير . فالذين يلبون الدعوة للجهاد هم دائماً مسلحون وعندهم مطايا وشيء من الذخيرة . والجهاد مثنى هو ضعف الجهاد ، فيجيء كل مجاهد بآخر يردفه ذلوله . هم الذين يلبون الدعوة الثانية والاحرى ان يسموا الرديف . اما القسم الثالث من المذكور فهم الذين يبقون في ايام الحرب في الهجر ليداوموا اعمال التجارة والزراعة ، ولا يدعون للحرب الا اذا اضطر صاحب البلاد الى الاستنفار العام . من حقوق الامام وحده ان يدعو الى الجهاد والجهاد مثنى . اما الاستنفار العام الذي لا يكون الا للدفاع عن الوطن ، فهو حق العلماء ولكن السلطان يكتب اليهم معلناً حاجة البلاد الى الدفاع ، فيبادرون الى استنفار الناس اجمعين ، البدو والحضر والمهاجرين

قال عظمة السلطان محدثاً عن الاخوان : يجيؤنا في السلم فنطعمهم كل ما يحتاجون اليه من كسوة ورزق ومال . ولكنهم في ايام الحرب لا يطلبون شيئاً منا . في ايام الحرب يتزود الواحد منهم ببيت الخرطوش ، و يبادر الى البندق ، ثم يركب الذلول الى الحرب ومعهُ شيء من المال والتمر . . . القليل عندنا يقوم مقام الكثير عند غيرنا . . . كنا نمشي ثلاثة ايام بدون اكل . يأخذ الواحد منا تمرة من حين الى حين يرطب بها فمه . . . ثم كانت الحاضرة اثبت قدماً واشد بأساً من البادية . اما الآن فالبادية المتحضرون اهل الهجر هم في القتال اثبت من الحاضرة واسبقهم الى الاستشهاد

ولكنهم في ما ظهر من بسالتهم ، وبطشهم ، وهول استشهادهم ، اورثوا عبد العزيز مشكلاً آخر كاد يفسد مشروعهُ الاصلاحي العظيم . فقد طغى الاخوان وتجبروا فضج الناس . راح الاخوان يحاربون من لم يحضر من البدو فيكفّرون وينهبون ، و يقتلون

« انت يا بدوي مشرك — والمشرك حلال الدم والمال . انت يا ابا العقال من الكفار — انا اخو من طاع الله ، وانت اخو من طاع الشيطان »

كذلك كان يسطو كل متعصب بالعصابة البيضاء على سواهُ من العرب ، فيغير ، ويسبي ، و يسفك الدماء . ولما انتشرت من جراء ذلك الفوضى في البلاد ، وكاد ينقطع حبل الامن والسلام ، فعقد الامام في سنة ١٣٢٧ (١) مؤتمراً في الرياض للنظر في هذه الامور ، حضرهُ كبار الرؤساء والعلماء ، وقرروا بعد البحث ما يأتي :

١ً — الكفر لا يصدق على بادية المسلمين الثابتين على دينهم . ٢ً — لا تفاوت بين لابس العقال ولابس العمامة اذا كان معتقدهما واحد . ٣ً — لا فرق بين الحضر الاولين والمهاجرين الاخيرين . ٤ً — لا فرق بين ذبيحة البدوي الذي في ولاية المسلمين ودربه دربهم ، ومعتقدهُ معتقدهم ، وبين ذبيحة الحضر الاولين والمهاجرين . ٥ً — لا حق للمهاجرين ان يعتدوا على الناس الذين لم يهاجروا كأن يضربونهم ، او يتهددونهم ، او يلزمونهم الهجرة . ٦ً — لاحق لاحد ان يهجر احداً بدوياً كان او حضرياً بغير امر واضح ، وكفر صريح ، و بدون اذن من ولي الامر او الحاكم الشرعي

وقد ضمنت هذه القرارات منشوراً (٢) من الامام والعلماء جاء فيه ما يأتي :

« ان معتقد المسلمين بدو وحضر واحد ، واصل المعتقد كتاب الله وسنة رسوله ، وما كان عليهِ الصحابة ثم السلف الصالح ثم ائمة المسلمين الاربعة ، الامام مالك ، والامام الشافعي ، والامام احمد بن حنبل ، والامام ابو حنيفه ، فهؤلاء اعتقادهم واحد في الاصل ..... قد يكون بينهم اختلاف في الفروع ، ولكنهم كلهم على حق ان شاء الله »

وهذا الاصلاح العظيم ، اي تحضير البدو فيكون عاجلاً او آجلاً المسلك الاوسع الذي فيهِ المدارس والتمدن ، لم يسبق لهُ مثيل في شبه الجزيرة منذ ايام النبي

الفريكة لبنان امين الريحاني

---

(١) تدعى هذه السنة في نجد سنة الرحة لان الوافدة الاسبيولية التي غزت العالم بعد الحرب لم تستثن حتى البادية . فقد مات في قلب البلاد العربية الوف من الناس وفيهم ابن السلطان البكر تركي واثنان اخران من اولاده (٢) في الملحق نسخة من هذا المنشور كاملة

الطيّار لندبرغ ووالدتهُ وطيّارتهُ

مقتطف اغسطس ١٩٢٧

امام الصفحة ١٣٥